مقدمة

ـ ١ ـ

إن رجال الأمم الإسلامية ترتفع أصواتهم فى كل مكان فى الآونة الحاضرة منادية بالإصلاح، وعاملة على الأخذ فى سبيله، من أجل ما يتمناه الجميع من نهضة نرجو الله أن تأخذ طريقها السليم.

ولا ريب فى أن مشكلة الإصلاح الإسلامى لا تزال فى حاجة إلى معالجتها فى إجمالها وعمومها.

ما هو الأساس، وما هى العناصر التى يقوم عليها الإصلاح الإسلامى فى الأسرة، فى المدرسة، فى الجامعات، فى المجتمع الكبير : مجتمع الأمة الإسلامية ؟

وإن أمل المسلمين الغيورين أن يوفق الله المصلحين والباحثين وحملة الأقلام إلى أن يُصْدِروا فى توجيهاتهم وفى إصلاحهم عن الإسلام: يتخذونه أساساً يستنيرون بمبادئه وأهدافه.

ومن أجل المساهمة فى علاج هذا الموضوع أتقدم بهذا الكتاب مبينًا ـ حسبما أراه ـ الأساس والعناصر.

أتقدم به وكل ما أرجوه من ورائه هو أن أثير الموضوع، وأن أوجه إليه، وأن أجعل منه مادة تتناولها أقلام المصلحين وألسنتهم، ويتناولها أصحاب الآراء بالدراسة والبحث .

والله أسأل أن ينير الطريق أمام المصلحين وأن يوجههم إلى اتباع سبيله.

وبعض الناس حينما يثار موضوع الإصلاح يتجهون عادة إلى أوربا وأمريكا، أى : إلى الحضارة الحديثة يستلهمونها التوجيه فى المنهج والموضوع. إنهم يستلهمون أوربا فى منهج الإصلاح وموضوع الإصلاح الذى يرون تطبيقه فى الأمم الشرقية الإسلامية، غير مراعين فى ذلك اختلاف البيئة، واختلاف الدين، واختلاف العرف والتقاليد، واختلاف الماضى الحضارى.

ومن أجل ذلك يتساءل كثير من الناس :

ما موقف المسلم من الحضارة الحديثة ؟.

وما موقف علماء الإسلام منها ؟.

-٢-

والواقع أن هذا الموضوع أثار كثيرًا من الجدل والنقاش فى مختلف الأقطار الإسلامية والشرقية، ولم ينته الحديث فيه بعد، فلا يزال الجدل للآن فيه مستمرًا، ولا تزال الندوات تعقد هنا أو هناك، والمقالات تحبر فى هذه المجلة أو تلك: يرى قوم أن سبيل الإصلاح هو أن نأخذ الحضارة الحديثة ككل، نأخذها بما لها وما عليها، نأخذها بدون تمييز ولا تخيُّر.

ومنذ عهد ليس ببعيد وقف أحد كبار الشرقيين فى ندوة جمعت بين كبار رجال الفكر وكبار علماء الدين وأعلن:

لم نتنكر للحضارة الحديثة ؟..

هذه الطائرات التى نستخدمها ، هذه الأدوية التى نستعملها، مستحضرات التجميل هذه التى نسعد بها، أليست ثمار الحضارة الحديثة؟

إنه يجب علينا عرفاناً بالجميل أن نأخذ الحضارة الحديثة ككل، نأخذها وحدة لا تنفصم.

وليس هذا رأى هذا المفكر وحده، وإنما هو رأى طائفة كبيرة فى الشرق تدعو إلى أخذ الحضارة الحديثة ككل دون استثناء شىء منها.

١ـ إن الحضارة الحديثة فى رأيهم حضارة متكاملة: مادة ومعنى، شكلاً وجوهراً.. فلنأخذها ككل.

٢ـ ويعارض هؤلاء كثيرون:يرفضون الحضارة الحديثة جملة، وهذا الرفض قد يكون كثيرًا فى الأفراد.. بيد أن بعض الدول تبنَّته أيضًا.

حاولت بعض الدول فى الماضى أن ترفض الحضارة الحديثة كلية وأن تغلق فى وجهها الأبواب، ولم توفق الدول ولم يوفق الأفراد أيضًا فيما يتعلق بهذه المحاولة..

٣ـ والرأى الثـــالث يرى أنه علينا أن نأخـذ الحضـارة المادية، أما الحضارة النظرية فإننا نأخذ منها الصالح ونترك منها غير الصالح.

وهذا الرأى يبدو أنه رأى الأغلبية.

هذه هى مجـموعة الآراء فيـما يتعلق بالموضوع، بل هى تقـريبًا مجموعـة الاحتمالات العقلية فى ذلك، ومع هذا فإننى شـخصيًا لم أرتض منها رأياً.

أما فيمـا يتعلق بأخذ الحضارة كلاً لا يتـجزأ فأظن أن المسألة فى الجـو الإيمانى وفى الجـو الإسـلامى السليم لا تحـتـاج إلى مناقـشـة كثيرة..

هذه الحضـارة الأوربية فيـها الكثيـر مما يخالف المبـادىء الإيمانية والمبـادئ الإسـلامـية، فـلا يتـأتى أن يسـود رأى كـهـذا فى الجـو الإسلامى.

أما فيما يتعلق برفضهـا كلية فإن هذا ـ واقعياً ـ لم يتحقق لا فى الأفراد ولا فى الجماعات، ولا فى الدول ولا فى الأقطار أيًا كانت.

ليس هناك قُطر لم يسـتفـد من الحضـارة الحديثـة، وليس هناك إنسان لم يستفد من الحضارة الحديثة..

الإنسان والأقاليم والأقطار ـ بل بنو آدم كلهم ـ قـد استفادوا من هذه الحضارة الحـديثة، فلا يتأتى قط أن يسـود الرأى برفض الحضارة الحديثة، وهذه الفكرة لم تتحقق فى الواقع.

ويأتى الرأى الوسط، الرأى الوسط الذى ساد ويسود فى كثير من الأوساط، والذى يبدو لكثير من الناس أنه الرأى السليم الصحيح، نأخذ من الحضارة الحديثة النافع والصالح ، ونترك من الحضارة الحديثة الضار والفاسد.

وبتأمل بسيط يمكننا أن نرى أن هذا الرأى فاسد أيضًا، إذ يعتمد على الاختيار العقلى وعلى الميول البشرية للإنسان دون ملاحظة للدين.

إذا قلنا بأخذ الصالح ، فما هو الصالح ؟ وفى رأى من ؟..

إن الصالح يختلف من إنسان إلى آخر .

إذا قلت مثلاً « ٦ ٪ فائدة البنوك » ثم تساءلت: أهذا صالح أم غير صالح ؟

ـ يقول لك كثير من الناس بحسب عقولهم وأفكارهم وآرائهم، يقولون لك: إنه لا بأس بذلك، لا بأس بستة فى المائة فى البنوك. ويرفض ذلك آخرون.

فهل ٦ ٪ فى البنوك صالح أخذها أم ليس بصالح؟.

يختلف الناس.

ونأتى إلى مسائل أخرى متحدثين بأسلوب العقل،لا بأسلوب الدين ونقول: شُرب قليل من الخمر: هل هو صالح أم ليس بصالح؟.

وستجـد ـ لا محالة ـ من يقـول لك : إنه لا بأس بشرب قليل من الخمر.

الاستحـمام المختلط على الشواطئ جماعـات رجالاً ونساء، هل هو صالح أم ليس بصالح ؟ . .

هل نأخذه من الحضارة الغربية أم لا نأخذه من الحضارة الغربية ؟

سـتجـد أيضاً أصـحاب الأهـواء الشيطانيـة، وأصحـاب الآراء الجنسيـة، يقولون لك: إن هذا صالح . . الجـسم صحته تتـوافر فى ضوء الشـمس، ويستفيـد من الفيتـامينات التى فى إشعاع ضـوئها، و. . . . . .

هذه القضايا ـ وكثير غيرها مما لا يقرها الدين ـ سنجد لها أتباعاً يقرونهـا من هؤلاء الذين يتبـعون أهواءهم ، وسنجـد من يقول: إن ذلك صالح. .

إذا قلنا بأخذ الناحية الصالحة فى الحضارة الحديثة ورفض الناحية غير الصالحـة فإن الرأى لا يستقيم ،لأن الناس يختلفون فيـه اختلافًا كبيرًا،ولا يتأتى التحديد:تحديد الصالح وتحديد غير الصالح،لا يتأتى الاتفاق على التـحديد ما دمنا فى مـجال العقل فحـسب، وما دامت المسألة آخذة وضعها العقلى الفكرى فقط.

ما المخرج ـ إذن ـ من هذا ؟. .

مـا هو ـ إذن ـ موقفنـا من الحضـارة الحديـثة إذا كـنا لا نقبلهـا ولا نرفضها ولا نقبل التوسط فيها ؟. .

وأريد أن آخذ الآن فى إبداء رأينا الشخصى فيما يتعلق بالموضوع ونحن فيما يتعلق بمجال الحضارة الحديثة نرى ـ كما يرى غيرنا ـ والآراء فيما سنذكره لا تختلف تقريبًا .

إن الحضارة الحديثة تنقسم إلى قسمين:

القسم المادى: قسم المعامل والمصانع، قسم الطب، قسم الكيمياء، قسم الطبيعة. هذه الناحية المادية البحتة التى تتأتى عن طريق الملاحظة، تحكمها التجربة. .

هذه الناحية المادية من الحضارة الحديثة لا يتأتى لنا قط أن نقول إن أوربا ابتدعتها ابتداعًا أو اخترعتها اختراعًا.

وهذه الناحية نفسها ـ الناحية المادية ـ لها جانبان:

- ❐ **جانب المنهج** .
- ❐ **وجانب الموضوع** .

أما فيما يتعلق بجانب المنهج فإنه **منهج الاستقراء**، وهو منهج تتبع الجزئيات للوصول إلى نتيجة كلية.

هذا المنهج الاستقرائى، أو المنهج العلمى، أو منهج السمع والبصر ـ أى : منهج الملاحظة ـ منهج إسلامى.

لقد سار عليه الإسلام وسار عليه المسلمون قبل أن تنشأ الحضارة الأوربية:

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾[1].

والسمع والبصر أساس الملاحظة والتجربة، أو عنهما تنشأ الملاحظة والتجربة.

إن عدم اتباع الظن ، والسير وراء الملاحظة ووراء التجربة . . هذا منهج الإسلام. اتخذه المسلمون منذ زمن بعيد، وقد اعترف الغربيون أنفسهم بأن الإسلام هو الذى بدأ بوضع المنهج التجريبى، واعترفوا بأن « روجر بيكون » الذى يعتبر فى أوربا المؤسس الأول للمنهج التجريبى أخذه عن العرب، وبأنه لم يكن إلا تلميذًا من تلاميذ العرب، لم يكن إلا طالبًا فى مدرسة العرب.

اعترفوا بهذا صراحة، يقول أحد كتابهم فيما يتعلق بالمنهج الخاص بالتجربة والملاحظة ، أى: منهج الاستقراء الذى بُنيت عليه الحضارة المادية الحديثة ـ وهو الأستاذ « بريفولت » فى كتابه (بناء الإنسانية) . . يقول:

ليس لروجر بيكون ولا لفرنسيس بيكون ـ الذى جاء بعده ـ الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن «روجر بيكون » إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية، وهو نفسه لم يملّ قط من التصريح بأن تعلُّم

---

(١) سورة الإسراء : ٣٦ .

معاصريه فى أوربا اللغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة.

ويقول فى مكان آخر من كتابه:

ولقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث . .

ويقول أيضاً:

ولم يكن العلم العربى وحده هو الذى أعاد إلى أوربا الحياة، بل إن مؤثرات كثيرة من الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية.

ويستفيض المؤلف فيما يتعلق بما للعرب وبما للمنهج العربى من أثر فيما يتعلق بالحضارة الحديثة.

لا أريد أن أطيل فى سرد نصوصه ـ وهى كثيرة ـ كلها تثبت أن هذا المنهج التجريبى إنما هو المنهج الذى قامت عليه الحضارة العربية، وأن أوربا إنما أخذته من العرب ولم تبتدعه ابتداعاً ولم تكتشفه اكتشافاً.

هذا فيما يتعلق بالمنهج.

أما فيما يتعلق بالموضوع فإن المؤلف نفسه الذى ألف هذا الكتاب الذى تحدثنا عن بعض آرائه ، يقول فى صراحة لا لبس فيها: إن

العلم الأوربى مدين للعلم الإسلامى العربى فى كثير من موضوعاته، إنه ليس مدينًا فى المنهج فحسب وإنما فى الموضوعات أيضًا.

ومما هو معروف أنه كان فى الحضارة الإسلامية أفذاذ فيما يتعلق بالعلم الطبيعى ، كان هناك ابن الهيثم فى البصريات وفى الأضواء .

ويرى كثير من المؤرخين للحضارة الأوربية أن كتاب « بيكون » نفسه فى الحرارة والضوء ما هو إلا نسخة من كتاب « ابن الهيثم » فى البصريات.

كان عندنا ابن الهيثم فى الطبيعة.

وكان عندنا الرازى وابن سينا فى الطب.

وكان عندنا جابر بن حيان فيما يتعلق بالكيمياء.

وكان عندنا الكندى فيما يتعلق بالرياضيات .

كان عندنا كل هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين تعترف أوربا بأنها مدينة لهم إلى الآن فيما يتعلق بمنهجهم التجريبى المبنى على الملاحظة وعلى التجربة.

وفيما يتعلق بالموضوعات التى تطرقوا إليها واستنتجوا منها النتائج التى لا تزال لها قيمتها للآن.

هذا الموضوع ـ موضوع الطبيعة ـ إذا أردنا التعبير الإسلامى عنه هو على حد الكلمة التى أطلقها الشيخ « محمد عبده»، وهى الكلمة التى تعبر التعبير الصحيح الإسلامى « سنن الله الكونية ».

فالطبيعة وقوانينها واكتشافاتها وموضوعاتها: البحث فيها إنما هو

البحث فى « سنن الله الكونية » واكتشاف قوانينها إنما هو اكتشاف لسنة الله الكونية.

إن الله سبحانه وتعالى يمن علينا فى القرآن الكريم بأنه سخر لنا البحار والأنهار، وسخر لنا الأرض وسخر لنا السماء، وسخر لنا الكواكب وسخر لنا القمر، وسخر لنا الشمس، وسخر لنا الكون كله[1].

لقد سخَّره للإنسان ، وهو بهذا الامتنان يطلب من الإنسان أن يجوب الفضاء، وأن يغوص فى الماء، وأن يخترق كل المعميات فى هذا الكون حتى يزداد إيماناً على إيمان وإقراراً على إقرار، فيزداد فى خضوعه وفى خشوعه لعظمة الله العظيمة، ولهيمنته هذه التى لا يند عنها شىء فى هذا العالم المسخر.

تتبع آيات الله فى الأنفس وفى الآفاق: كل هذا دعوة إسلامية، وتتبع آيات الله،والتسخير،لا يتأتى إلا عن طريق الملاحظة وعن طريق التجربة .

المنهج التجريبى، المنهج الحديث: هذا هو منهج الإسلام.

ويدعونا الإسلام أيضاً ـ إلى أن نكون فى هذا الجانب المادى أقوى ما نكون :

---

(١) انظر سورة الرعد: ٢، وسورة إبراهيم: ٣٢، وسورة النحل: ١٢، وسورة الحج: ٦٥، وسورة العنكبوت: ٦١، وسورة لقمان: ٢٠ ، ٢٩، وسورة فاطر: ١٣، وسورة الزمر: ٥، وسورة الجاثية: ١٢ ، ١٣ .

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾[1].

والاستطاعة لا تكاد تُحَدُّ، وكلما وصل الإنسان إلى حد من الاستطاعة تفتحت أمامه آفاق استطاعات جديدة يجب عليه أن يلجها. فهو فى كل آونة مترق فى عالم الطبيعة، وهو فى كل آونة متتبع لهذه القوانين مترق فيها حتى يظل دائماً فى القمة، فيكون مركزه دائماً وباستمرار فى القمة من القوة المادية.

وإذا كان المسلمون قد تأخروا فى هذا الجانب فليس ذلك ذنب القرآن الكريم ولا ذنب الإسلام وإنما هو ذنب تكاسلهم وخمولهم.

وهم بهذا التأخر آثمون إسلاميًا، إنهم آثمون فى نظر الإسلام وفى نظر القرآن الكريم: فهم أصحاب دعوة، والقرآن أعدهم من قديم لهذه الدعوة.. وهم أصحاب رسالة، وأصحاب الرسالات إن لم يكن عندهم القوة القوية، وإن لم يكن عندهم السلطان المسيطر إن لم تكن عندهم السيطرة المتحكمة من أجل الخير ومن أجل العدل ومن أجل الحق، إن لم يكن عندهم هذا فإن رسالتهم تستمر حبرًا على ورق.

ولم يرد الإسلام أن تكون الرسالة الإسلامية أو أن تستمر الرسالة الإسلامية حبراً على ورق.

---

(١) سورة الأنفال: ٦٠.

فالإسلام يدعو المسلمين إلى أن يكونوا أقوى دولة فى العالم، فإذا ما ضعفوا كانو آثمين فى نظر الإسلام، كانوا آثمين وكانوا مقصِّرين فى حق رسالتهم التى كلفهم الله سبحانه وتعالى بها.

إنها آخر الرسالات، إنها الرسالة الأبدية، إنها الرسالة الدائمة. ولابد من قوة دائمة فى هذا العالم تسندها، فإذا لم تكن هذه القوة فإن هذه الرسالة لا يكون لها من التأثير ومن النفوذ ما يريده الإسلام منها ومن أصحابها.

الجانب المادى ـ إذن ـ جانب إسلامى، وما علينا إلا متابعة الإسلام فى هذا الطريق بكل وسيلة ممكنة، وبكل طريقة تتيسر.

ولا يقال ـ إذن ـ حينما نسير فى الحضارة المادية مكتشفين ومخترعين ومتبينين الاكتشافات والاختراعات إننا أخذنا الحضارة الأوربية، وإنما يقال: إننا تابعنا الخطوات التى تابعها وسار فيها أسلافنا، وإذا كنا فى هذا المجال نستعين بهذا أو ذاك فإن الاستعانة ليس معناها أخذ من حضارة لأن هذا الجانب لا لون له، أى أن الرقى المادى لا لون له..

لا يقال: هذه الكيمياء ألمانية أو فرنسية أو انجليزية، وإنما هى الكيمياء أينما كانت وأينما وجدت لا تتسم بلون، فإذا استعنا بهذا أو ذاك فى سبيل متابعة أسلافنا فيما يتعلق بهذا المجال فلسنا متابعين، وإنما نحن نواصل هذه المجهودات التى بدأها أسلافنا وانقطعنا عنها فترة، ونريد أن نعود إليها من جديد.

-٣-

ويأتى بعد ذلك القسم الآخر من أقسام الحضارة الأوربية وهو القسم الثقافى ، وهذا القسم الثقافى نبتدىء فيه بشىء من تاريخ الإسلام نفسه أو ببعض الحوادث التى حدثت فى ربوع الإسلام.

لقد حل رسول الله ﷺ بالمدينة التى نورت به، وأخذ يعمل جاهدًا على نشر الدعوة الإسلامية متخذًا كل وسيلة لبيانها وإيضاحها.

وفى يوم من الأيام ـ كما يروى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن جابر رضي الله عنه ـ أتى سيدنا عمر بن الخطاب النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبى ﷺ ، قال: فغضب وقال:

« أتتهوَّكون [1] فيها يا بن الخطاب؟.. والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق فَتُكَذِّبُونَهُ ، أو بباطل فتصدِّقونه ، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حياً ما وَسِعَهُ إلا أن يتبعنى ».

هذا الحادث رواه الإمام أحمد بوجه آخر عن سيدنا عمر رضي الله عنه ، وفيه يقول رسول الله ﷺ :

« والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم، إنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين ».

(١) أى : أتتشككون فى شريعتكم.

ولم يكتف رسول الله ﷺ بذلك بل قام خطيباً ، وكان مما قال:

« يا أيها الناس إنى قد أُوتيتُ جوامعَ الكَلِم وخواتيمه، واختُصر لى اختصارًا، وقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوَّكوا ولا يغرنَّكم المتهوِّكون ».

ثم أمر بتلك الصحيفة فمُحيتْ حرفًا حرفاً.

ويبدو أن هذه الحادثة تكررت بصورة أخرى، فقد روى ابن جرير وغيره قال: جاء أناس من المسلمين بكتب كتبوا فيها ما سمعوه من اليهود، فقال النبى ﷺ :

« كَفَى بقومٍ ضلالةً أن يَرْغَبوا عما جاءهم به نبيُّهم إليهم إلى ما جاء به غيره » .

وتكررت المسألة مرة ثالثة، فقد أخرج عبد الرزاق فى «المصنف» والبيهقى فى «شُعَب الإيمان» عن الزهرى أن حفصة جاءت إلى النبى ﷺ بكتاب من قصص يوسف فى كتف فجعلت تقرأه عليه والنبى ﷺ يتلوَّن وجهه، ثم أعاد عليها ما سبق أن قال للآخرين وهو:

« والذى نَفْسى بيده لو أتاكم يوسفُ وأنا نبيكم فاتبعتُموه وتركتُمونى ضَللتم: أنا حظكم من النبيين وأنتم حظى من الأمم ».

وفى مرة رابعة قال رسول الله ﷺ هذه الكلمة التى تبين مدى ما يجب على المسلمين نحو تعاليم نبيهم

لقد قال ﷺ :

« والله لو كان موسى حيّاً ما حَلَّ له إلا اتباعى » .

ولقد أحب رسول الله ﷺ أن تكون المسألة فيما يتعلق بأخذ المسلمين عن غيرهم حاسمة باتة؛ فلقد مر الصحابة فى يوم من الأيام على اليهود وهم يتلون التوراة فتخشَّع المسلمون، فعاتبهم رسول الله ﷺ قائلاً الآية القرآنية الكريمة:

﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِم أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(١).

وتمضى السنون، وينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ويتبع الصحابة هديه فى ألا يكون لغير كتابهم وهدى نبيهم ﷺ مجال فى توجيههم.

وفى يوم من الأيام بينما كانت السيدة عائشة رضي الله عنها فى بيتها إذا بها تتلقى هدية، فظنت أنها أهديت لها من عبد الله بن عمرو فردَّتها وذكرت السبب فى ردها قائلة عن عبد الله بن عمرو: إنه يتبع الكتب، وقد قال الله تعالى :

﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِم أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(٢).

---

(١) ، (٢) سورة العنكبوت : ٥١ .

فقال لها حامل الهدية، إنها ليست من عبد الله بن عمرو ولكنها من عبد الله بن عامر، فتقبلتها.

ويمضى الزمن والمسلمون يضعون أمام أعينهم قوله تعالى:

﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ ﴾[1].

يقول الإمام ابن كثير:

يعنى من أعرض عن هذا القرآن فاتبع غيره من الكتب فإنه يناله هذا الوعيد، كما قال فى الحديث المروى فى المسند والترمذى عن أمير المؤمنين علىٍّ مرفوعًا وموقوفًا:

« من ابتغى الهدى فى غيره أضلَّه الله ».

ولما تولى سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الخلافة رأى أن المسلمين فى حاجة إلى معرفة أوسع بعالم الطب ووسائل العلاج، وفكر فى تيسير الاستعانة لأطباء المسلمين بثقافات الأمم الأخرى فى هذا المجال، ففكر فى ترجمة كتاب أو كتب فى هذا الموضوع، ولكنه قبل أن يقدم على الأمر سأل نفسه: إن هذا عمل لم يفعل مثله رسول الله ﷺ ولم يفعل مثله أحد الخلفاء الراشدين، فهل يجوز له أن يقوم بذلك ؟

وتردد فى الأمر ثم استخار الله فترة طويلة من الزمن حتى شرح

---

(١) سورة طه : ٩٩ ـ ١٠١ .

الله صدره لتنفيذ الترجمة فأمر بها، وكان الكتاب بين أيدى المسلمين ولم يذكر أحد من المسلمين لعمر بن عبد العزيز ﷺ نهياً، ولم يرفع أحد منهم صوتًا بالإنكار عليه، لا لأنه الخليفة ولكن لأنهم لم يروا فى العمل من بأس.

وقد يتساءل إنسان عن السر فى موقف الرسول ﷺ وموقف عائشة رضوان الله عليها من الإنكار على الذين يتبعون الكتب وهو موقف يختلف عن موقف المسلمين من عمر بن عبد العزيز ﷺ، حيث كانت موافقتهم له عامة كاملة.

وهنا وقبل أن نمضى فى البحث نسارع بالعودة بالقارئ إلى ما سبق أن ذكرناه من التفرقة بين مجالين:

أولهما: المجال المادى، مجال الطبيعة، مجال المادة، مجال الأرض والسماء وما بين الأرض والسماء.

وهذا المجال لا يطبع ذاتية الأمة بطابع خاص، ولا يعطيها لوناً معينًا، لأن القوانين المادية والمبادىء الحسية لا تختلف من قطر إلى قطر ولا من بيئة إلى بيئة.

وإذا سايرت أمةٌ أمةً فى هذا المجال فإنها لا تكون بذلك قد فعلت ما يضر بذاتها أو يقلل من شأن شخصيتها.

والمسلمون فى عصورهم الزاهرة اندفعوا إلى كشف المساتير فى المجال المادى فكونوا حضارة مادية خصبة، وأفادوا الإنسانية فى الطبيعة وفى الكيمياء، وفى الطب، وفى الصيدلة، وفى غير ذلك

من ميادين الحس ومن جوانب المادة، وهم وإن بلغوا حينئذ مرتبة القيادة والزعامة فإنهم لم يكونوا يتحرجون من الاستفادة فى هذا المجال بكل ما أنتجته الإنسانية من مكتشفات.

والمجال الثانى: هو المجال الروحى ، وهو مجال يتضمن فى خطوطه العامة: العقيدة والأخلاق والتشريع،وهذا المجال هو الذى يكوِّن ذاتية الأمة، ويطبعها بطابع معين، ويعطيها لونًا خاصاً.

لقد استخار اللهَ سيدُنا عمر بن عبد العزيز أربعين يوماً فى ترجمة كتاب فى الطب ثم شرح الله صدره كما سبق أن بينا، وكتاب الطب كتاب من كتب الحضارة فى جوها المادى، إنه كتاب من الكتب ذات الطابع المادى، ولا بأس أن يترجم كتاب من هذا النسق، أو أن يتابع أو أن يقتبس منه، أو أن يؤخذ فى الجو الإسلامى من مبادئه.

وتسير الحياة بالمسلمين هادئة فى جوانبها الحضارية، إلى أن يأتى العصر العباسى ، وتبدأ الترجمة.

والترجمة لم يعترض عليها معترض فيما يتعلق بجانب الطب أو بجانب الطبيعة أو بجانب الكيمياء [1]، ولكن المسلمين فى أول

---

(١) لقد كتبنا فى هذا الموضوع عدة مرات فى الكتب والجرائد والمجلات، ومما كتبناه فى ذلك ما يلى:

إن الحقيقة التى لا يختلف فيها الدارسون للدين الإسلامى هى أن الإسلام منذ نشأته=

العهـد العباسى كانوا نافـرين كل النفور من أن تترجم كـتب ما وراء الطبيعة اليونانية.

= يناصـر العلم ويحث عليـه ويوجـبه: إنه يـوجب العلم فى جـميع الميـادين وفى شـتى النواحى، إنه يوجب العلم بمعناه الحـديث: العلم بالطبـيعة وبالـكيميـاء، وبالطب.. إنه يوجبه على صورة بحـيث تصبح الأمة الإسلامية كلهـا آثمة إذا لم تصل فى هذا الميدان إلى أرقى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان.

والله سبـحانه يمـن علينا بأن سخـر لنا البحـار والأنهار، وسـخر لنا الشـمس والقـمر والكواكب والنجوم، وسخـر لنا الأرض، وسخر لنا السماء، وسـخر لنا ما بين الأرض والسماء.

وبعبارة مختصرة: يمن الله علينا بأن سخر لنا هذا الكون بأكمله، وإنه من شكر الله تعالى على نعمائه أن نستجيب إليه سبحانه فنسـخر ما سخر لنا، نسخره بالعلم، ونتسلط عليه بالمعرفة، ونمتلكه بالبحث، ونتابع كل ذلك فى تطور مستمر وفى تجديد متتابع.

ومما لا شك فيـه أنه لا يتحدث أحد من المسـتنيرين والغيورين على الإسـلام عن الغزو الفكرى فى هذا المجال، وهذا المجال هو الوحيد الآن الذى يعبر عنه فى الحضارة الغربية الحديثة بالمجال العلمى: سواء فى ذلك روسـيا وأمريكا وأوربا، وهو المجال الذى يعبر فى العصر الحاضر عن التقدم والتأخر بسبب رقيه فى أمة أو ضعفه فيها.

ولكن الإسلام مع اعتـرافه بالجانب العلمى ومع إيجابه له لا يعـترف به كمقيـاس لتقدم الأمة أو تأخرها، ولكن تقدم الأمة وتأخرها بحسب المقيـاس الإسلامى إنما هو بتحقيقها أو عدم تحقيقها للمـثل العليا فى الأخلاق التى أتى بها الإسلام. وهنا نصل إلى الجانب الآخر من جوانب الحضارة الغربية، أو نصل إلى القـضية الثانية من القضايا التى نريد أن نحدد موقف الإسلام منها، وهى قضية الثقافة.

والناس حينما يتحدثون عن الحضارة الحديثـة يتحدثون عن جانبين تتكون منهما: الجانب العلمى المادى، وقد شرحنا موقف الإسلام منـه، والجانب الثقافى النظرى: وهو ما نريد أن نتحدث عنه الآن ، وفى هذا المجال نبدأ بذكر حقيقتين: =

إن ما وراء الطبيعة يعنى بالأبحاث التى تتصل بالعقيدة.

وأجمع المسلمون على أنه إذا كانت عقيدة اليونان حقاً فعندنا ما هو أحق منها وهو القرآن الكريم فى الأسلوب الإلهى.

وإذا كانت باطلاً فإننا فى غنى عنها.

وكذلك شأنهم وموقفهم فيما يتعلق بالأخلاق، كانوا يعتزون بأخلاقهم، ويعتزون بعصبيتهم لعقيدتهم وأخلاقهم المنزلة الموحاة.

= أما **الأولى**: فهى أن النتاج البشرى كله فى الجانب الثقافى النظرى هو نتاج ظنى ولا يتسم باليقين فى قليل ولا فى كثير، وهو ـ لأنه ظنى ـ متعارض ومتغير ومتطور وكل شخص يقول: إن هذه القضية أو تلك ـ فى الجانب النظرى ـ هى قضية يقينية، إنما هو شخص مخطئ عرف ذلك أم لم يعرفه.

أما **الحقيقة الثانية**: فهى أن الإسلام له نظام أصيل مستقل، إنه نظام إلهى، إنه من وحى السماء، معصوم، وهو دين، وهو عقيدة.

ومن القصص ذات المغزى العميق أن الرسول صلوات الله عليه وسلامه رأى صحيفة بيد أحد الصحابة يقرأ فيها فسأله عنها فقال: إنها قطعة من التوراة، فظهر الغضب على وجه الرسول صلوات الله عليه، ونهاه عن الاستمرار فى القراءة وقال له: « **لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعى** ». وهنا نلحظ فى وضوح تفرقة فى موقف الإسلام من الجانب العلمى المادى، وموقفه من الجانب الثقافى النظرى. فهو فى الجانب العلمى المادى موجب وفارض ومشجع وحاث.

أما فى الجانب الثقافى النظرى المتغير المتطور الظنى القابل للخطأ والصواب فإن كل دعوة للأخذ به واعتناقه والإيمان به إنما هى دعوة عابثة، وهى دعوة آثمة إذا ما طغت على الجو الفكرى الإسلامى، وهى دعوة منكرة إذا ما أراد إنسان إحلالها محل المبادئ الإسلامية.

لقد كانوا يعتزون بذلك إلى درجة أنهم لا يرون أن يكون هناك أى كتاب أو رأى يقوم بجوار هذه المبادىء الإلهية الإسلامية سواء أكانت عقيدة أم أخلاقًا.

ولم يترجموا كتب الأخلاق إلى أن جاء المأمون.

والمأمون بتربيته الفارسية كان عنده من التهاون القليل أو الكثير، ولم يكن عنده من التحرج ما كان عند غيره، فأمر بترجمة الكتب التى تتصل بما وراء الطبيعة والكتب التى تتصل بالأخلاق.

لقد قام بترجمة هذا على الرغم من النفور العام بين المسلمين المؤمنين المتدينين.

لقد ترجم كتب ما وراء الطبيعة، وترجم كتب الأخلاق، على نفور من هؤلاء الذين يرون أن العقيدة الإسلامية يجب أن لا يكون بجوارها أى شيء آخر، وأن الأخلاق الإسلامية يجب أن تكون مستقلة لا يكون بجوارها شيء ولا تدنس ولا تتلوث بما يتوهم أنه حق بجانب الحق.

لكن الترجمة ـ ترجمة ما وراء الطبيعة ـ أخذت شيئاً فشيئاً مجالها، وترجمة الأخلاق أخذت شيئاً فشيئاً مجالها، بل أصبحت مألوفة فى البيئة الإسلامية، وأصبحت وكأنها شيء عادى، وليست ترجمة ما وراء الطبيعة أقل شأناً ـ فيما يتعلق بالجو الإسلامى الصحيح ـ من الورقة التى كانت بيد سيدنا عمر.

إن العقيدة الإسلامية والأخلاق الإسلامية هى التى تكوِّن ذاتية

المسلم، أى : أن ذاتية الأمة الإسلامية لا تتكون بكيمياء أمريكية لأن الكيمياء ـ كما قلنا ـ لا لون لها، ولا تتكون بطبيعة روسية لأن الطبيعة لا لون لها.

حقيقة أنه لابد من الكيمياء، ولابد من الطبيعة كما قلنا للقوة وللغلبة وللسلطان ولتأدية الرسالة من أجل الحق والخير.

إن الذى يكوِّن ذاتية الأمة إنما هو اللون الثقافى فيها، وقد رأينا موقف الرسول ﷺ وموقف المسلمين الأول منه.

وعلى أى وضع إذا نظرنا إلى هذه الثقافة فى نفسها: الثقافة النظرية، وهذا هو الجانب الذى أهتم به كثيرًا، وأريد أن أنبه الأذهان من جديد إلى أنى أتحدث عن ثقافة لا تتصل بالملاحظة ولا بالتجربة، أى أنها ثقافة ليست بحسية.

أتحدث ـ إذن ـ عن الثقافة النظرية البحتة، عن الفلسفة، عن الأخلاق، عن هذا الجانب فى علم الاجتماع الذى لا يتصل بالملاحظة والتجربة، عن الجانب فى علم النفس الذى لا يتصل بالملاحظة والتجربة، عن هذه الجوانب فى أى علم وفى أى موضوع التى لا تتصل بالاستقراء.

إن التجربة تتحكم فتكون فيصلاً فيما يتعلق بالحق والخطأ، لكن المجالات النظرية البحتة ليس لها هذا الفيصل الذى يفرق بين الحق والباطل.

ما وراء الطبيعة مجال نظرى بحت، وهو يختلف من فرد إلى آخر ويتعدد بعدد اختلاف الأفراد.

إذا جئنا للجو اليونانى فإنا نجد أن « أفلاطون » فيما يتعلق بتصور «الآلهة » يختلف عن « أرسطو » ، وتصور أرسطو يختلف عن تصور «الرواقيين » ، وتصور« الرواقيين » يختلف عن تصور «أبيقور » أو الأبيقوريين.

يصور أفلاطون الإله على أنه مثال للخير على رأس المثل، أو مثال للجمال على رأس المثل، ومع أن أرسطو من مدرسته فإنه يصور الله سبحانه وتعالى بصورة أخرى، ويرى أنه المحرك الأول، وهذا المحرك الأول ليس هو الذى يحرك العالم بإرادته، وليس هو الذى خلق العالم، وليس هو الذى صوَّر العالم وكوَّنه، بل إنه لا يعلم عن العالم شيئاً مطلقًا.

إنه لا يعلم عن العالم شيئاً: يستوى فى ذلك التافه من أمره والعظيم منه، إنه لا يعلم حتى مجرد وجود العالم.

وتأتى الرواقية فترى الله سبحانه وتعالى يمتزج بالكون امتزاجاً كاملاً: فهو سره، وهو فى كل ذرة من ذراته، وفى كل خلية من خلاياه .

ويأتى أبيقور ويقول: ليس هناك شىء اسمه الله، وليس هناك إله. وتختلف هذه المدارس باختلاف أفرادها، وباختلاف رؤسائها.

وقبل أن نستمر فى شرح موضوع هذه الثقافة النظرية البحتة، قبل أن أستمر فيها طويلاً، أريد أن أتحدث عن قصة لها مغزاها العميق كى تكون أمام أنظارنا حينما نضرب الأمثال فيما بعد.

هذه القصة يرويها مؤرخو الفلسفة اليونانية:

اجتمع سقراط باثنين من الفيثاغوريين، من كبار فلاسفة الفيثاغورية أحدهم اسمه سيمياس، وكان من كبار الفلاسفة، اجتمعوا يتناقشون فيما يتعلق بخلود الروح: هل هى بعد الموت ؟.. هل هى مستمرة أم أنها فانية ؟..

هل الإنسان حينما يموت مادة وروحًا أم أنه يموت مادة فقط وتبقى الروح ؟ وهل الروح خالدة ؟.

كانوا يتحدثون فى هذا الموضوع، ويحاولون ما استطاعوا أن يقيموا الأدلة على خلود الروح، على أنها باقية بعد الموت، ثم تنتهى بهم الأدلة وينقطع بهم البرهان.

يقول سيمياس، ويقول سقراط ـ وسقراط معروف بأنه أبو الفلاسفة ـ يقول سيمياس لسقراط: إن الموضوع ما زال فى حاجة إلى بحث أكثر، ويوافق سقراط ثم يقول متأسفًا:

إن العقل فى مجال ما وراء الطبيعة مثله مثل لوح من خشب يريد الإنسان أن يقطع به البحر فى يوم عاصف. أما مثل الدين

بالنسبة لما وراء الطبيعة فإنه المركب، إنه السفينة الأمينة لقطع البحر، ويأسفون جميعًا على أنه لم ينزل دين يحدد الموضوع تحديداً تاماً: يحدد مسألة خلود الروح، ويعترفون بأنه لو كان قد نزل دين يحدد هذا الأمر فإنهم كانوا يستجيبون إليه، ويؤمنون به ويستسلمون، وتهدأ نفوسهم فيما يتعلق بهذا الأمر.

ولا جدال فى أن العقل فى محيط ما وراء الطبيعة لوح من خشب لقطع البحر، ولكنه فى حقيقة الأمر لوح من خشب فى كِل علم نظرى لا مجال للتجربة ولا للملاحظة فيه.

وخذ أى مادة من المواد النظرية، خذ ما وراء الطبيعة، خذ الأخلاق، خذ التشريع، خذ هذه النواحى الكثيرة المتعددة التى سميت بأسماء علوم مختلفة ـ وهى كلها نظرية ـ فإنك ستجد العقل دائماً هو لوح الخشب الذى لا يتأتى أن يقطع به الإنسان البحر مهما احترس ومهما كان يحاول أن ينجو بهذا اللوح.

والفلسفة فيما يتعلق بالعالم الحديث، كل فلاسفة العصر الحديث مختلفون على أنفسهم ، ليس بينهم فيلسوف واحد يتفق مع الآخر وإلا لما كان فى حاجة أن ينشئ فلسفة جديدة لو اتفق مع زميله.

ومعنى الفلسفة: أنها ابتداع دين بجوار الدين، أو عقيدة بجوار عقيدة، كذلك الأمر فيما يتعلق بالأخلاق، إنها على هذا النسق. وكذلك الأمر فيما يتعلق بالتشريع، إنه على هذا النسق.

وإذا تـرك التشـريع للعقـل فسيكون هنـاك الاختـلاف، وإذا ترك ما وراء الطبيعة للعقل فسيكون هناك الاختلاف أيضاً..

والمخـرج أن نصدر فى كل هذه الأمـور عن الدين، ولا مجـال لرأى آخـر. إذا أخلصـنا لابد من أن نعـتـمـد علـى الدين فى هذه المجالات الثلاثة:

- **مجال ما وراء الطبيعة.**
- **مجال الأخلاق.**
- **مجال التشريع.**

هذه المجالات ثابتة فى الدين، مستمرة لا تقبل التطور.

مـجال العـقيـدة لا يقبل التطور، الـعقيـدة هى هى، لا تختلف العقيدة الدينية الإسلامية من بيئة إلى أخرى، ولا من قطر إلى آخر، ولا من زمن لزمن، ولا من مكان لمكان.

ولا تختلف **الأخلاق الإسلامية** أيضاً من بيئة إلى أخرى، ولا من مكان لمكان، ولا من زمن لزمن، فهى هى..

أما فيما يتعلق بالتشريع فإن كثيراً من الناس يعتقدون أن التشريع الإسلامى متطور، ولكن **التشريع مبادئ ووسائل**.. قد يترك الإسلام بعض الوسائل غير محددة، يتـركها للزمن، ولكن المبادئ أو الغايات هى هى.

مثلاً: مبدأ الشورى، لم يحـدد وسيلته الإسلام، أى أن الشورى

نفسهـا مبدأ إسلامى ثابت ، ووسيلة الشـورى لم يحددها الإسلام، وتركها للبـيئات وتركها للأزمان، يحـددونها عن طريق البرلمان، عن طريقة أخرى، يحددونها كيفما شاءوا.

لكن الغايات، النهايات،المبادئ، القواعد، إنها ثابتة.

ويتساءل كثير من الناس: وما شأن الاجتهاد ـ إذن ؟

إن المجتهدين فى الإسلام كثيرون، فما شأن الاجتهاد فى الدين ـ إذن ؟

والواقع أن هذا الجانب يضـل فيه كـثير من الناس، أو يزل فـيه كثير من الناس.

الاجتهـاد فى الإسلام معناه: أن يحاول المجتـهد ما استطاع، أن يحـاول ما أمكنه: أن يربط بين حـادثة حدثت جـديدة وبين قـاعدة إسلامية موجودة، أو أن يدخل فى نطاق قاعـدة إسلامية عامة حادثة من الحوادث التى حدثت جديدة، فليس الاجـتهاد ـ إذن ـ ابتداعاً أو اختراعـاً أو تطوراً، ليس فيه شىء من هذا القبـيل، وإنما هو محاولة جاهدة كادحـة، دائبة مستـمرة، للوصول إلى ما كان عـليه الرسول ﷺ ، لو كان الرسول موجوداً.

« **إذا صَحَّ الحديـثُ فهو مَـذْهبى** » قاعـدة تنقض كل شبـهة من الشبهات التى ترمى إلى أن الاجتهاد، إنما هو ابتداع، أو هو اختراع، أو هو شىء من هذا القبيل.

ليس ـ إذن ـ فى الجانب الإسلامى تطور، أقول هذا، لأنه من أخطر الأمور على العقيدة الإسلامية، وعلى الجو الإسلامى، الفكرة التى تسود فى كثير من الأوساط، والتى هى سائدة فى الثقافة الأوربية الآن ـ أعنى فكرة التطور ـ وفكرة التطور تتناسب مع الثقافة فى أوربا.

والثقافة فى أوربا ـ الثقافة النظرية ـ التى لا تتصل بالتجربة أو بالملاحظة، الثقافة النظرية فى أوربا متطورة ـ وهذا حقيقى ـ متطورة لأنها بشرية، وكل ما هو بشرى من نتاج العقل البشرى فإنما هو نسبى وهو ـ إذن ـ متطور .

إنه نسبى متطور، وقد يكون هذا التطور تطوراً إلى القديم ـ لا تطوراً إلى شىء جديد ـ يعنى مثلاً: مذهب الوجودية الحالى، الذى يقال إنه مذهب جديد كل الجدة، إنما هو مذهب السفسطائية القديم، لا أكثر ولا أقل ـ إنه المذهب الذى يرى أنه ليس هناك حقيقة مطلقة، وإنما الإنسان يكيف نفسه، ويكون نفسه، ويوجه نفسه ؟

وهو ليس فى هذا إلا فرداً من الأفراد ، له رأيه الخاص، ولذلك لا يسرى رأيه على الآخرين: لأنه ليست هناك حقائق مطلقة، فهو عودة إلى المذهب القديم ـ مذهب السفسطائية القديم ـ المذهب الذى لفظته كل البيئات السليمة، إنه عودة إلى مذهب تلفظه كل البيئات السليمة.

ومذهب الوجودية فى الحقيقة والواقع لا يسود إلا فى البيئات المريضة التى لا ترى وزناً للقيم الأخلاقية، ولا للدين، ولا للحقائق المطلقة، وترى أن الإنسان يكوّن نفسه من الألف إلى الياء، مستقلاً عن التقاليد، وعن الدين، وعن الحقائق، وعن كل شىء فى المجتمع .

ونعود إلى فكرة التطور:

لقد نشأت مع (داروين) وكانت لها شهرة قوية فى أوساط أوربا، وفى أوساط الشرق، ولكن هذه الفكرة نفسها ـ باعتراف كل العلماء ـ فيها الفجوات التى تجعلها ظنية لا يقينية، إنها فكرة ظنية لم تصبح يقيناً، وكثير من العلماء هاجمها وعارضها، وأقام الأدلة على انهيارها، ولكنها مع ذلك سادت فى بعض الأوساط الشرقية، وأصبحنا الآن ـ وهذا هو الخطر الذى نحذر منه ـ أصبحنا الآن نرى كتباً بأقلام المسلمين، وبأقلام المفكرين الكبار، تقول بفكرة التطور، وكأنها حقيقة موجودة.

وما من شك فى أن هناك التطور المادى، لا ينكر ذلك أحد، هناك التطور من : الفحم إلى وابور الغاز، إلى البوتاجاز، وهناك التطور من السيارة إلى الطائرة. . . إلخ.

هناك التطور المادى، لا ينكر ذلك أحد إطلاقاً، ولكن هذا التطور المادى لا دخل له مطلقاً، ولا شأن له مطلقاً بتطور العقل، من حيث هو عقل الإنسان.

إن الإنسان من حيث هو إنسان لم يتطور عقله من حيث هو عقل، لم يزد، لم يكن مثلاً عشر درجات، ثم أصبح خمسين درجة أو ما شاكل ذلك.

الإنسان لم يتطور إلى كائن آخر، إنه لا يزال هو الإنسان الذى وجد من عهد آدم إلى الآن، ولكن من المؤسف أن بعض المفكرين فى الشرق يسيرون فى الأمر وكأن التطور حقيقة واقعة، وكأن التطور العقلى حقيقة واقعة، وكأنه يقين مطلق؛ وفى هذا خطورة كبيرة.

أضرب مثلاً للخطورة حينما تدخل فكرة التطور فى مسائل الدين، إن أحد كبار المفكرين الإسلاميين وله شهرة ذائعة فى الجو الإسلامى، حينما أراد أن يفسر القرآن، وحين أراد أن يفسر قصة سيدنا آدم وخلق سيدنا آدم، وأمر الله سبحانه وتعالى للملائكة بالسجود، وكان فى ذهنه فكرة التطور وأن الإنسانية بدأت بكذا... وكذا. وأن آدم ليس هو أول الإنسانية مباشرة، يعنى أن الإنسانية لم تبدأ بآدم مباشرة.

كان فى ذهنه كل ذلك، وجاء يفسر القرآن ويفسر قصة آدم، فسرها على أنها تصوير، مجرد تصوير، مجرد تمثيل، مجرد قصة:

- مجرد قصة، لماذا ؟

- مجرد تمثيل، لماذا ؟

ـ مجرد تصوير، لماذا ؟

ليخرج من فكرة التطور، وحتى لا يلتزم قضية أن آدم إنما هو أول البشرية حقاً، أول البشرية خلق خلقاً جديداً، أنشأه الله سبحانه وتعالى، سوَّاه بيديه، ونفخ فيه من روحه.

وإذا كانت قصة آدم تمثيلاً، وإذا كانت تصويراً، فلا يبقى شيء في القرآن لا يمكن أن يؤول، إذا أولنا قصة آدم، إذا أولنا قصة سجود الملائكة، إذا أولنا كل ذلك... وقد ذُكرت في القرآن عدة مرات، إذا أولناها، فإنه لا يبقى في القرآن أو في الإسلام شيء لا يمكن أن يؤول، وفي تأويل كل شيء القضاء على الإسلام.

وعلى هذا، ففكرة التطور يجب أن لا تدخل في المحيط الفكري الديني للمسلمين. وكل من أدخلها في المحيط الفكري الديني الإسلامي إنما يضر الإسلام ويكون خطرًا على الإسلام، أكثر من العدو العاقل.

هذا الصديق الجاهل يكون خطراً على الإسلام، أكثر من العدو العاقل.

وهذا مثل، مجرد مثل من الأمثلة الكثيرة، وعلى كل حال، فإن الكتب الحديثة تجدها دائماً قائلة بفكرة التطور، وأن الإنسانية تطورت وأنها... إلخ.

كل هذه النواحى إذا أدخلناها فى محيط العقيدة، أو أدخلناها فى محيط الأخلاق، أو أدخلناها فى محيط الدين، فإنها تجعل من الدين مجموعة من المبادئ النسبية، ومعنى مجموعة من المبادىء النسبية، أنها ليست حقائق مطلقة، وأنها يمكن أن تتطور، وتتطور إلى اللانهاية، ويأتى يوم من الأيام وقد انفصلنا عن الدين وعن المبادئ الدينية الانفصال الكامل والانفصال التام.

فكرة التطور فيما يتعلق بالحضارة الحديثة، قام بها « داروين »، ويعترف اليهود، أو يعترف الصهيونيون، فى كتابهم أو مبادئهم، «بروتُكولات حكماء صهيون »، يعترفون بأنهم هم الذين وضعوا «داروين» فى الأفق على المنصة، وهم الذين أعلنوا عنه، وهم الذين أذاعوا فكرته، وهم الذين حببذوها، وهم الذين نشروها فى كل مكان.

ولقد فعلوا ذلك لأنها تقوِّض الأديان من أساسها، وهى مع ذلك ـ كما قلنا ـ فكرة ظنية .

وكلما تقادم الزمن بها، وكلما تقادم العهد بها، ازداد الشك فيها.

الثقافة الحديثة، أو الحضارة الحديثة فى جانبها الثقافى، إذا رحبنا بها وأخذنا بها، فإن ذلك يعد من الحجب التى تحجب ـ شيئاً فشيئاً ـ الفكرة الإسلامية والذاتية الإسلامية، وإنه لمن المعقول أننا ـ وعندنا القرآن وعندنا السنة ـ وقد طبق القرآن وطبقت السنة فكان ازدهار الأمة الإسلامية، وكان مجدها..

من المعقـول أن نصدر فى ثقـافتنا عن ذاتيـة إسلاميـة، عن قرآن وسنة، وكل هذا البريق فـيما يتـعلق بالحضارة الحـديـثة فى جانبـها الثقافى، يجب ألا يخدعنا. مثلاً: الحرية، والمساواة.

من الغـريب: أن الأوربيين أنفسـهم من كبـار المفكرين فى أوربا نفسها، يرون أن هذين المبدأين متعارضان.

يرون أنه **إذا وجدت الحرية فلا مساواة.**

وإذا وجدت المساواة فلا حرية.

يرون التعارض فى المبدأين وأنهمـا لا يجتمعان، لأنه إذا وجدت المساواة، فكيف يتأتى أن توجد الحرية.

ومن هذه الأشياء فى الجانب الثقافى أيضًا: ما يقال من أن العلم للعلم، أو الأدب للأدب، أو الفن... كل هذه لهـا خطورتها فيـما يتعلق بالأجواء الإيمانية.

فى جـو الإيمان لا يتـأتى مطـلقـاً أن يكون الأدب للأدب، وإنما الأدب للأخلاق ولـلفضيلة، لـترقيـة الفطرة، لإثارة الشعـور الدينى الكريم، لكل هذه المعانى..

أما فكرة الأدب للأدب فإنه لا يسـتسيغهـا مطلقاً، عقل أو قلب مؤمن. كذلك فـيما يتعلق بالفن لـلفن، الفن للفن معناه أنك ترسم الصورة العارية كما شئت.

الفن للفن أيضًا فكرة لا يتأتى للمؤمن أن يقـول بها وأن يمتدحها أو أن يتبناها شعارًا له، هذه النواحى كلها، وكثيـر غيرها فيما يتعلق بالثقافة الغربية الحديثـة: الثقافة النظرية، يجب أن نكون بعيدين عنها كل البـعـد، وأن نتـبع ـ فى هذا الجانـب ـ الإسلام وحـده، نجـعله الأساس، نجعله المصدر الموجِّه.

إن هذه الآراء الثقافيـة النظرية الحديثة، هى كما يقـول أحد كبار المفكرين فى أوربا، مثلها كمثل « الموضة »، وأزياء النساء ، تتبدل من عام إلى عام، ومن فترة إلى فترة.

إن « موضة » هذا العام فى علم النفس مثلاً هى كذا، هى نظرية فـلان، أو هى نظرية فلان، والموضـة فى العـام المقبل أو فى العـام الماضى نظرية أخرى . . وهكذا الأمر فـيما يتعلق بالفلسفـة، أو فيما يتعلق بالتشريع . . . إلخ.

هذه النواحى كلها تجعلنا حـذرين فيما يتعلق بالقـسم الثقافى فى الحضـارة الحـديثـة، بل يجـب أن نكون بعيدين عنه كل البـعد، وأن نقرأه لا علـى أنه حـقائق ومـبادئ وإنما على أنه نتاج بشـرى متغـير متطـور نسبى لا ثبـات له، وإذا قرأناه على هذا الوضع انتـفى بعض الضرر منه.

ويجب أن نصدر عن ذاتية إسلامية، وعن مبادئ إسلامية، عن قاعدة إسلامية، عن جو إسلامى.

والنتيجة التى أريد أن أنتهى إليها من هذه المحاضرة [1] وهى الخاتمة: إنما هى العودة إلى الإسلام . .

العودة إلى الإسلام:

١ ـ ملاحظة وتجربة، ومنهجاً وقوة مادية:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾[2] .

العودة إلى الإسلام: من تسخير الأرض، وتسخير السماء، وتسخير ما بين الأرض والسماء، وتسخير الكواكب، وتسخير الشمس والقمر، وتسخير البحار والأنهار.

العودة إلى الإسلام أقوى ما تكون فى الجانب المادى . .

٢ ـ والعودة إلى الإسلام، والاعتزاز بالإسلام أقوى ما يكون فى الجانب الثقافى، سواء اتصل ذلك بالعقيدة، أو اتصل ذلك بالتشريع، أو اتصل ذلك بالأخلاق. اهـ .

وإذا أردنا أن نفصِّل فى بعض ما أجملنا، وأن نحدد المنهج الذى نسير عليه فى تكوين الشخص المسلم والمجتمع المسلم، فما هى المبادئ التى نسير عليها ؟ وما هو المنهج الذى نتبعه ؟ . .

من أجل ذلك ألفنا هذا الكتاب.

هذا وبالله التوفيق . .

---

(١) ألقيتها فى الخرطوم، وتركتها هنا على أسلوبها الشفهى، أسلوبها المتحدث، ولعل القارئ لاحظ أنه ليس أسلوباً كتابياً.

(٢) سورة الأنفال : ٦٠ .